العلاقات الاسلامية البيزنطية في فترة حكم النساء وأزواجهن
١٠٢٨ - ١٠٥٦م / ٤١٩ - ٤٤٨هـ

للأستاذه الدكتورة
عليه عبدالسميع الجنزوري
أستاذ تاريخ العصور الوسطي
بكلية البنات - جامعة عين شمس

١٩٩٥م

كان للعلاقات الإسلامية البيزنطية على طول تاريخ العصور الوسطى دورا بارزا وبصفة واضحة المعالم على صفحات تاريخ العالم ككل وتاريخ المسلمين والبيزنطيين على وجه الخصوص .

والحقيقة أن أغلب حلقات تلك العلاقات نالت حظها الوافر من الدراسة والبحث المستفيض سواء من الجانب الإسلامي أو من الجانب البيزنطي ، بينما بقيت بعض الجوانب القليلة التي لم يركز عليها الضوء إلا قليلا . لذا آثرت أن أتناول أحد تلك الجوانب في مقالي التالي الخاص بالعلاقات بين المسلمين والبيزنطيين في فترة حكم زوي Zoe وثيودورا Theodora إبنتي الإمبراطور قنسطنطين الثامن Constantin VIII (١٠٢٥-١٠٢٨م / ٤١٦-٤١٩هـ) ، الذي إنتهى بإعتلائه العرش البيزنطي العصر الذهبي للإمبراطورية البيزنطية ٨٤٣-١٠٢٥م(١) / ٢٢٩-٤١٦هـ .

كان قنسطنطين الثامن - آخر الأعضاء الذكور للأسرة المقدونية - إمبراطورا مساعدا Co-Emperor (٢) لأخيه باسل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م/٣٦٥-٤١٦هـ) لمدة نصف قرن تقريبا ، إلا أنه كان مساعدا خاملا ، وبذلك ظل يعتبر الشخصية التافهة إلى جوار شقيقه القوي ، وعندما أصبح كهلا كان إمبراطورا بالإسم فقط ، فقضى معظم وقته في حضور مآدب الطعام والشراب والإستمتاع بحفلات المسرح التي أنفق وبدد فيها - بطيش وإهمال -

(1) Ostrogorsky (G.): History of the Byzantine State, Oxford, 1968, p. 210.

(٢) كان لنظام الإمبراطور المساعد في الدولة البيزنطية أهمية خاصة في الحفاظ على نظام توريث العرش في الأسر الحاكمة الشرعية ، ولم يكن هذا النظام يخضع للقانون في بيزنطة كما كان الحال في روما ، وعليه فقد أخذ أباطرة بيزنطة يتبعون أسلوبا عمليا في إختيار خليفتهم المرغوب فيه كإمبراطور مساعد وذلك في فترة حكمهم وقبل وفاتهم . وكان هذا الإمبراطور يلبس التاج ويمنح اللقب الإمبراطوري ، بل إن صورته كانت تظهر غالبا جنبا إلى جنب مع الإمبراطور الفعلي على النقود ، وكان إسمه يدرج في المراسيم الإمبراطورية . وعند وفاة الإمبراطور الفعلي ، يحل الإمبراطور المساعد محله ويتمتع بكامل سلطات الإمبراطور ، وعلى ذلك يحفظ حق إرتقاء العرش في داخل الأسرة الإمبراطورية ويدعم إستمرار الدولة . ولقد إستمر إختيار الإمبراطور المساعد من الأسرة الحاكمة الشرعية حتى خرقت تلك القاعدة على عهد الإمبراطور قنسطنطين السابع (٩١٢-٩٥٩م/٣٠١-٣٤٨هـ) عندما عين والد زوجته رومانوس ليكابينوس في ديسمبر ٩٢٠م/٣٠٨هـ إمبراطورا مساعدا له . مما كان له أثره في خروج العرش من الأسرة الشرعية إلى أسرة غير شرعية .

(Ostrogorsky: Ibid, P.P. 107, 264).

الموارد المالية الضخمة للإمبراطورية التي كان باسل الثاني قد جمعها . وهكذا وصف بأنه "كان إمبراطورا فاسقا مسرفا"(١) .

كان هذا هو رأي المصدر البيزنطي في قنسطنطين الثامن ، أما المصدر السرياني فينقله لنا (ابن العبري) الذي إنفرد وحده بالرأي القائل بأنه كان "لطيفا مهذبا دمث الأخلاق ، وكان رجلا ذي نفس عظيمة"(٢) ، وبتعبير آخر كان دمث الخلق بشوشا شهم النفس(٣) .

توفى قنسطنطين الثامن في ١٠٢٨م/٤١٩هـ ولم يكن له أولاد ذكور (٤) وترك ثلاث بنات فقط (٥) ، كانت أكبرهن وهي ايودوكيا Eudocia مشوهة الوجه من أثر مرض الجدري ، لذا سلكت سلك الراهبات (٦) وعليه فلم تكن كبرى بنات قنسطنطين الثامن هي التي "ملكها الروم" (٧) عليهم بعد والدها .

وإذا كانت بعض المصادر العربية والسريانية قد أشارت إلى أنه بوفاة قنسطنطين (ملك الروم) إنتقل الملك إلى بنت له "وقام بتدبير الملك والجيوش زوجها وهو ابن خالها"(٨) أو أنه أوصى بالمملكة "حين إحتضاره لإبن أخيه رومانوس" أو "صهره زوج إبنته" (٩) ، فإن المصادر والمراجع الغربية تشير إلى أنه على خلاف المعتاد ، وعندما كان الإمبراطور قنسطنطين الثامن على فراش الموت حاول أن يتم زواج إحدى بناته – الأميرتين

---

(1) Ostrogorsky: Ibid, P.P. 298, 302.

(2) Bar Hebraeus: The chronography of Gregory Abul Faraj, V. I, P. 191.

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ، نقله للعربية الأب إسحق أرملة السرياني ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٨٣

(4) Strogorsky: Op.cit, P. 321.

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٨٢م – ١٤٠٢هـ ، جـ ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، بيروت ١٩٨٠ ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ ؛

Ostrogorsky: Op.cit, P. 321.

(6) Ibid, P. 321.

(٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ .

(٨) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٩ ، ص ٣٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، جـ ٤ ، ص ٢٧٠ . وغالبية المصادر العربية تطلق على إمبراطور الروم إسم ملك الروم .

(٩) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٣ .

المسنتين[1] – وبحث عن زوج مناسب ، وفي اللحظات الأخيرة وقع إختياره على رئيس المدينة رومانوس أرجيروس Romanus Argyrus الذي كان ممثلا بارزا للأرستقراطية الوطنية للعاصمة ، وكان يشرفه أولا إنتماءه إلى أسرة بيزنطية عريقة ، هذا إلى جانب وظيفته ثانيا . فقد كانت وظيفة رئيس المدينة Eparch of the City بإستمرار – خاصة بالنسبة للقسطنطينية – وظيفة مشهورة ، وقد زادت مكانتها في القرن الحادي عشر ، بينما نجد كتاب المراسيم Book of Ceremones في القرن العاشر قد وصف الإبرش (بوالد المدينة) ، بل قيل إن تلك الوظيفة كانت من المناصب الإمبراطورية الرفيعة ، وأن صاحبها لا يفرقه عن الإمبراطور شيئا سوى لبس الأرجوان [2] .

تزوج رومانوس من زوي في ١٢ نوفمبر ١٠٢٨م/ ٢٢ شوال ٤١٩هـ ،.وكانت آنذاك في الخمسين من عمرها . وبعد مرور ثلاثة أيام على وفاة قنسطنطين الثامن إرتقى رومانوس العرش باسم رومانوس الثالث أرجيروس [3] الذي إمتد حكمه من ١٠٢٨ إلى ١٠٣٤م [4] / ٤١٩-٤٢٦هـ ، وكان على قدر من الثقافة ، وكان عمره آنذاك ستين عاما . أما عن مواهبه الطبيعية كحاكم فكانت منعدمة تماما ، لكنه "حاول أن يحذو حذو الشخصيات البارزة في الماضي ، والتي كانت أطيافها تسبح بإستمرار أمام عينيه" [5] .

---

(1) كانت زوي وثيودورا قد ودعتا سن الشباب ، لكنهما كانتا آخر أعضاء الأسرة المقدونية ، وعليه فقد قدر لهما أن تلعبا دورا مهما في التاريخ البيزنطي خلال السنوات التالية .
(Ostrogorsky: Op.cit, P. 321).

(2) Ostrogorsky: Ibid, P. 321; Hussey (J.M.): Cambridge Medieval History, V. IV, The Byzantine Empire, Part 1, Byzantine and its Neighbours, Chapter V, The Later Macedonians, The Comneni and the Angeli 1025-1204, Cambridge 1966, P. 195.

هنا يوضح رنسيمان أن رئيس المدينة كان مسئولا عن الشرطة والأمن وضبط النظام وتوزيع جرايات الخبز المجانية . (رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٩٦١ ، ص ٩٤) .

(3) Ostrogorsky: Op.cit, P.P. 321-322.

أجبر رومانوس أرجيروس على طلاق زوجته وتحويلها إلى سلك الراهبات وذلك رغم معارضة الكنيسة ، كي يتم تلك الزيجة الجديدة ويصل إلى الحكم ولبس الأرجوان .
(Previte Orton: The shorter Cambridge Medieval History, V.1, P. 273, Hussey Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part 1, Cahpter V, P. 195).

(4) Previte Orton: Op.cit, V.I, P. 273.

(5) Ostrogorsky: Op.cit, P. 322.

أما زوجته الإمبراطورة زوي ، فكانت هى الإبنة الوسطى للإمبراطور قنسطنطين الثامن ، وكانت على قدر كبير من الجمال الذي شهد به بعض المؤرخين المعاصرين لها وعلى رأسهم (بسيلوس Psellus) إلى جانب تلك الصورة الرائعة التي رسمها لها أحد كبار الفنانين بالفسيفساء في كنيسة سانت صوفي في صالة العرض الخاصة بالنساء • كانت زوي هى أكثر بنات قنسطنطين الثامن جمالا ، ومن دلائل شدة جمالها أنها ظلت مثيرة للإنتباه حتى في كهولتها بشرتها الصافية الناعمة وبإهتمامها بأناقتها ومظهرها [1] ، طموحة ، ساذجة ، تعتقد بشدة في كلام العرافين والمشعوذين • إلا أنه لم يكن لديها أية دراية بفن الحكم [2] • هذا إلى أنها كانت تتصف بالشهوانية والتهور والتبذير [3] •

حكم رومانوس الثالث الإمبراطورية البيزنطية كشريك للإمبراطورة زوي [4] وهو الذي أشار إليه المصدر العربي بإسم (أرمانوس) [5] •

والواقع أنه منذ اللحظة الأولى لزواج زوي من رومانوس ، ولمدة عدة سنوات ، كان هناك حاجزا واضحا بينها وبينه ، فبمجرد إعتلاء رومانوس العرش البيزنطي ، ترك زوي الإمبراطورة الكهلة المرهقة كما مهملا ، هذا بالإضافة إلى أنه ضيق عليها مصروفاتها [6] •

---

(1) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 194.
هنا قد يتساءل البعض عن سر بقاء تلك الإمبراطورة دون زواج حتى سن الخمسين رغم جمالها وأناقتها وحسن مظهرها ؟ إلا أن الإجابة تستنتج أو تستشف من أن ذلك حدث بعد إخفاقها في حبها الأول • فقد قرأنا عن مفاوضات دارت من أجل زواج الإمبراطور الغربي الشاب أوتو الثالث Otto III منها ، إلا أن تلك المفاوضات لم يقدر لها النجاح ، فعندما توجهت إلى إيطاليا في يناير ١٠٠٢م/٣٩٢هـ لتلقي العلم فوجئت بوفاة خطيبها وهو في ريعان شبابه ، وذلك عند وصولها إلى مدينة (باري) الإيطالية •
(Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, Chapter V, P.P. 184-187).

(2) Hussey: Ibid, P. 194.

(3) Previte Orton: Op.cit, V. I, P. 273.

(4) Previte Orton: Ibid, P. 273, The Encyclopedia Americana, International Idition, V. 29, P. 788.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٣٨ ، ٤٩٨ - ٤٩٩ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٥٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٢٧٠ •

(6) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323, Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V IV, Part 1, Chapter V, P. 196.

أما عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في عهد رومانوس وزوي فإننا نجد أن المراجع الغربية أشارت إليها بشيء من الإقتضاب قائلة "لسوء حظ رومانوس أرجيروس أنه هزم في بلاد الشام" وأن العاصمة القسطنطينية أصيبت في عهده بعدة كوارث منها الطاعون ، الجراد ، المجاعة والزلزال (١) . أما المصادر العربية والسريانية فقد فصلت الحديث وكشفت النقاب أكثر عن تلك الحلقة من العلاقات بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي .

فقد قيل : إن "ملك الروم" أي الإمبراطور البيزنطي خرج إلى بلاد الشام في ٤٢١هـ/١٠٣٠م (٢) بجيش كبير يقدر بثلاث مائة ألف مقاتل وتوجه إلى حلب التي كانت بيد شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس (٣) وعسكروا بالقرب منها "فلحقهم عطش شديد ، وكان الزمان صيفا وكان أصحابه مختلفين عليه ، فمنهم من يسحده ومنهم من يكرهه" (٤) .

هنا أشار رومانوس على من معه بالتريث حتى يسقط المطر وتكثر المياه ، لكن "ابن الدوقس" - وهو من أكابر الروم - رفض تنفيذ هذا الرأي وأشار بالإسراع "قصرا لشر يتطرق إليه ولتدبير كان قد دبره عليه" ورافقه ابن لؤلؤ في عشرة آلاف فارس وسلكو طريقا آخر . عندئذ خلا بالملك أحد أصحابه وأعلمه أن ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالفا أربعين رجلا ، هو أحدهم على الفتك به ، هنا خاف رومانوس "ورحل من يومه راجعا" (٥) .

---

(1) Previte Orton: Op.cit, V.1, P. 273.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٠٤ .
والمقصود بملك أو إمبراطور الروم هنا رومانوس الثالث أرجيروس لأن ذلك كان في فترة حكمه.

(٣) قامت أسرة صالح بن مرداس في حلب ٤١٤هـ/١٠٢٣م وإستقلت بالأمر فيها حتى ١٠٧٩م (حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٥) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٠٤ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

ولم يلبث أن لحق به ابن الدوقس وسأله عن سبب رجوعه فأرجع ذلك إلى إجتماع العرب عليهم وقربهم منهم ، ولم يلبث أن قبض على ابن الدوقس وابن لؤلؤ ومن معهما ورحل الإمبراطور راجعا فتتبعه "العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينبهون" (١) .

ويقال أيضا إن سبب عودة الإمبراطور إلى بلاده أن حشدا قليلا من العرب هاجم القوات البيزنطية "فظن الروم أنها كبسة" فإحتاروا فيما يصنعون حتى أن ملكهم "لبس خفا أسودا وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر" عندئذ إنهزم البيزنطيون وغنم المسلمون جميع ماكان معهم (٢) .

أما إبن العبري فيعطينا تفسيرا دينيا إنفرد به ، لذا يجب علينا أن نتناوله بشئ من الحيدة والحذر ، وذلك عندما يقول : " إن الملوك السابقين لرومانوس ، نجحوا في التخلص من إضطهاد المؤمنين (المسلمين) لهم ، لذلك إزدهروا في كل مكان . لكن هذا الملك بدأ يضطهد المسيحيين ، وأبعد عن طريق النفي البطريرك المقدس ابن عبدون Mar Abdun وأساقفته وذلك إتباعا للعادة القديمة ، وعليه فقد حطم الله الروم المخادعين المضللين وسحقهم أمام أعدائهم" (٣) .

أما عن خسائر البيزنطيين في ذلك اللقاء مع المسلمين وحلفائهم فقد أوضحها ابن الأثير بقوله : إنها كانت "أربعمائة بغل محملة مالا وثيابا" إلى جانب هلاك كثير من البيزنطيين من شدة العطش ، ولم ينج إلا الملك وحده "ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شئ البتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا" (٤) .

---

(١) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٥ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(3) Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 191.

أما مترجم إبن العبري فيعطينا ترجمة هذا النص على النحو التالي : "إن الملوك السابقين لرومانوس كان النصر حليفهم في الحروب لأنهم لم يكونوا يتشبثون بالمسائل الدينية . أما رومانوس هذا فقد عادى بطريركنا القديس إبن عبدون (١٠٠٤-١٠٣٠م/٣٩٤-٤٢١هـ) وأساقفته ونفاهم جاريا على عادة اليونان المكارين القدماء ، ولذا سمح الرب بسحقهم تجاه أعدائهم" . (ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٣) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٠٥ .

بينما يذكر المصدر السرياني أن خسائر البيزنطيين كانت "سبعين بعيرا محملة نقودا وآنية ذهبية وفضية وأقمشة فاخرة وبغالا كثيرة حتى بيع البغل الجيد في حلب بدينارين" . ولم يبق مع الملك رومانوس فيما قيل "خيمة أو كاس يشرب بها ماء" (١) .

وفي سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م إستولى البيزنطيون على مدينة الرها التي كانت بيد عطير النميري ، فاستولى نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر على حران وجهز من قتل عطيرا حاكم الرها فشفع صالح بن مرداس حاكم حلب إلى نصر الدولة أن يعيد الرها إلى إبن عطير وإلى إبن شبل مناصفة فقبل شفاعته وسلمها إليهما وذلك في سنة ٤١٦هـ (٢) / ١٠٣٣م . وكان في الرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر فتسلم إبن عطير الكبير وإبن شبل الصغير وظلت المدينة معهما إلى تلك السنة ٤٢٢هـ فراسل إبن عطير الإمبراطور البيزنطي رومانوس وباعه حصنه بعشرين ألف دينار هذا إلى جانب عدة قرى من بينها قرية سن إبن عطير ، وتسلم البيزنطيون البرج الذي كان له ودخلوا البلد عنوة فملكوه وهرب منه أصحاب بن شبل ، عندئذ قتل البيزنطيون المسلمين وخربوا المساجد (٣) .

وعندما سمع نصر الدولة الخبر سير جيشا إلى الرها ، فحاصرها "وفتحها عنوة" وإعتصم من بها من الروم بالبرجين ، وإحتمى النصارى بالبيعة الخاصة بهم ، "وهي من أكبر البيع وأحسنها عمارة" فحاصرهم المسلمون وأخرجوهم ثم قتلوا أكثرهم ونهبوا البلد ، وبقي البيزنطيون في البرجين فسار إليهم جيش بيزنطي عظيم يقدر بنحو عشرة آلاف مقاتل ، فإنهزم أصحاب إبن مروان أمامهم ، عندئذ دخل البيزنطيون البلد وما جاوره من بلاد المسلمين وصالحهم إبن وثاب النميري على حران وسروج "وحمل إليهم خراجا"

---

(١) إبن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٣ - ٨٤ . Bar Hebraeus: Op.cit, V, I, P. 192.

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٥٧ .

(٣) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤١٣ ؛ أبو الفدا : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة وإبن شبل هو إبن شبل الدولة بن صالح بن مرداس .

عنها[1] . كما أشار إبن الأثير في موضع آخر إلى إستيلاء البيزنطيين على الرها في عهد الإمبراطور رومانوس بشئ منَ الإيجاز بقوله : "وهو الذي ملك الرها من المسلمين"[2] .

كذلك إستولى البيزنطيون في تلك السنة أيضا ٤٢٢هـ / ١٠٣١م على قلعة أفامية بالشام . ويرجع السبب في ذلك إلى أن الخليفة الفاطمي الظاهر [3] أرسل وزيره الدزبري[4] إلى الشام فملكه . ثم قصد حسان بن المفرج الطائي وألح في طلبه فهرب منه ودخل إلى الأراضي البيزنطية "ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب" وبصحبته جيش كبير ، فسار إلى أفامية وباغتها وإستولى عليها "وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم" عندئذ أرسل الدزبري يستنفر الناس للغزو [5] .

وفي ١١ أبريل ١٠٣٤م [6] / جمادى الأولى ٤٢٥هـ مات رومانوس الثالث في الحمام ، وذلك بعد أن تم إتفاق بين زوي وعشيقها ميخائيل البافلاجوني Michael the Paphlagonian على التخلص منه .

---

(١) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤١٣ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٩٨ .

(٣) هو أبو الحسن علي بن منصور بن نزار بن معد ، ولد ليلة الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاث مئة . بويع له يوم عيد الأضحى سنة إحدى عشرة وأربع مئة . (إبن إيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٦ ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م ، ص ٣١٣ ؛ المقريزي : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، جـ ٢ ، القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م ، ص ١٢٤ .

(٤) الدزبري أو الترزبري هو الأمير المظفر أمير الجيوش عدة الإمام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالي أبو منصور أنوشتكين . مولده بلاد ما وراء النهر في بلد الترك في البلد المعروف بختل وسبى منه وحمل إلى كاشغر وهرب إلى بخارا وملك بها وحمل إلى بغداد ثم إلى دمشق سنة ٤٠٠هـ فإشتراه القائد تزبر بن أونيم الديلمي . ثم إنتقل إلى ملكية الحاكم بأمر الله عام ٤٠٣هـ ، وصار يرتقي حتى سيره مع سديد الدولة ذي الكفايتين الضيف في العسكر إلى الشام عام ٤٠٦هـ ، ثم تولى بعلبك ، ثم قيسارية ثم تنقل في الوظائف حتى إنتهى إلى ولاية دمشق . (إبن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٧١-٧٥ ؛ المقريزي : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ حاشيه (١) للمحقق د. محمد حلمي محمد أحمد) .

(٥) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٢٠ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ .

(6) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323.

وثمة عدة آراء مختلفة بين المصادر والمراجع العربية والأجنبية عن كيفية التخلص من رومانوس منها :

أن زوي وميخائيل أعملا الحيلة في قتله ، فمرض "فأدخلاه الحمام كارها وخنقاه" وأظهرا أنه مات في الحمام [1] ، أو أن زوي دست ميخائيل عليه فقتله [2] ، أو أنه توفى نتيجة لدفع زوي وعشيقها له بالقوة تحت الماء ، عندئذ إكتفت زوي بعد أن شاع خبر وفاته بأن دخلت إلى الحجرة التي يرقد فيها وألقت عليه نظرة واحدة ثم تمالكت نفسها [3] .

لم تلبث زوي أن تزوجت بعد ذلك مباشرة من عشيقها الشاب ميخائيل البافلاجوني رغم المعارضة الشديدة [4] . وهنا إرتقى ميخائيل العرش البيزنطي باسم ميخائيل الرابع Michael IV ١٠٣٤-١٠٤١م [5] / ٤٢٥-٤٣٣هـ "على كره من الروم" كما دون إبن الأثير [6] .

كان ميخائيل من أصل وضيع [7] فقد كان إبنا لأحد فلاحي بافلاجونيا [8] وهو الذي أشار إليه إبن الأثير بقوله إنه "رجل صيرفي ليس من بيت الملك وإنما بنت قسطنطين إختارته" [9] .

يدين ميخائيل الرابع بإرتقائه العرش لأخيه John the Orphantrophus وهو أحد الخصيان ذوي النفوذ والسطوة ، فأحضره للقصر الإمبراطوري وصمم على أن ينتزع له

---

(١) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ .

(3) Hussey: Op.cit, Cam, Med. Hist, V. IV, Part I, Chapter V, P. 196.

(4) Ibid: P. 196.

(5) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323, The Encyclopaedia Americana, V. 29, P. 788.

(٦) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ .

(7) The new Encyclopaedia Britanica, V. VI, P. 858, The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 11.

(8) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323.

(٩) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٣٨ .
وربما خلط القلقشندي بينه وبين أخيه هنا عندما ذكر أن زوي زوجة رومانوس مالت "إلى المتحكم في دولته" (القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠) .

العرش – الذي يعتبر هو محروما منه لأنه خصي – عندئذ وقعت الإمبراطورة العجوز في حبه وتزوجته [1] .

ورغم أن ميخائيل الرابع أثبت أنه حاكم قدير وقائد شجاع [2] ، إلا أنه كان يعاني من نوبات الصرع [3] . فقد " أصابه الصرع ودام به" [4] ، وعلى ذلك ترك تصريف دفة الحكم كلية لأخيه الخصي حنا [5] .

أما عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في تلك الفترة ، فقد أسعفتنا المصادر بما يلي ، حيث يقال إن البيزنطيين إستولوا في ٤٢٥هـ/١٠٣٤م على قلعة بركوي وكانت متاخمة للأرمن ، وكانت تحت حكم أبي الهيجاء بن ربيب الدولة إبن أخت دهسوذان بن مصلان ، فإختلف هو وخالة ، فبعث الأخير إلى البيزنطيين وأغراهم بالإستيلاء عليها ، وبالفعل أرسل الإمبراطور البيزنطي جيشا كبيرا إستطاع الإستيلاء عليها ، ولما وصل الخبر إلى الخليفة "أرسل إلى أبي الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على إستعادة القلعة" فإصطلحا بالفعل ، لكنهما لم يتمكنا من إستعادتها رغم إنضمام عدد كبير من المتطوعين إليهم ضد البيزنطيين ، وذلك لثبات أقدام الأخيرين فيها [6] .

---

(1) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323; The New Encyclopaedia Britannica, V. VI, 1768, P. 858.

(2) Ostrogorsky: Op.cit, P. 324.

(3) Ibid: P. 324: Previte Orton: Op.cit, P. 273, Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General Editor: Marcel Dunan Honorary, Foreword by Arnold Toyenbee, P. 297; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12;

ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ . وهنا يعزى بريفيت أورتون سبب ذلك الصرع إلى شعور ميخائيل بالندم ، نتيجة إشتراكه في قتل رومانوس الثالث .

(4) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ .

(5) Previte Orton: Op.cit, P. 273; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

(6) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٣٧ .
كان الخليفة العباسي آنذاك هو القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر ، الذي ولد في نصف ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وثلثمائة . ولي الخلافة عند موت أبيه في يوم الإثنين الحادي عشر من ذي الحجة سنة إثنتين وعشرين وأربعمائة ، وكان ولي عهده في الحياة ، وهو الذي لقبه بالقائم بأمر الله . (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م ، ص ٤١٧) .

وفي ٤٢٦هـ/١٠٣٥م جمع ابن وثاب النميري جيشا كبيرا من العرب واستنجد بالبيزنطيين الموجودين بالرها "فسار معه منهم جيش كثيف" وهاجم ممتلكات نصر الدولة بن مروان ونهب وخرب عندئذ توجه ابن مروان بقوات ضخمة لمواجهة ابن وثاب وحلفائه مما دفعهم للتراجع ، عندئذ أرسل ابن مروان إلى إمبراطور الروم "يعاتبه على نقض الهدنة ، وفسخ الصلح الذي كان بينهما" وأرسل يستنجد بحكام الأطراف ، "فكثر جمعه من الجند والمتطوعة" وعزم على التوجه إلى الرها ومحاصرتها ، فقدمت رسل الإمبراطور البيزنطي تفيد بأنه "يعتذر ويحلف أنه لم يعلم بما كان" ثم أرسل الإمبراطور إلى قواته التي بالرها وإلى قائدهم يستنكر ما قاموا به ، وفي نفس الوقت أهدى إلى نصر الدولة هدية قيمة ، فتراجع عما كان قد عزم عليه من غزوهم وفرق القوات المجتمعة معه (١) .

وفي نفس السنة أيضا ٤٢٦هـ/١٠٣٥م تقدمت القوات البيزنطية إلى ولاية حلب فخرج إليهم حاكمها شبل الدولة بن صالح بن مرداس ، فإقتتل الفريقان وهزم حاكم حلب البيزنطيين ، وتبعهم إلى عزاز ، وغنم غنائم كثيرة وعاد سالما (٢) .

أما في ٤٢٧هـ/١٠٣٦م فقد توجه ابن وثاب النميري ، حاكم حران ومعه جيش كبير من الأكراد والمعديين إلى "(سويرك) وهي للروم ودوخها" وقتل من أهلها ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص وسبى مجموعة من النساء والفتيان . ثم زحف إلى الرها وحاصرها ومنع عنها المؤونة . عندئذ ضاق الأهالي بالحصار وسلموه المدينة ، فانهزم البيزنطيون وتحصنوا في برج المدينة فقاتلهم المسلمون وفتكوا بمائتين وخمسين رجلا وتعذر عليهم الإستيلاء على البرج ، "فنهبوا المدينة" وعادوا . ويقال إن عدد الفتيات والفتيان الذين سبوهم كان ثلاثة آلاف نسمة (٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٣٣ . وهو يسمي الإمبراطور البيزنطي هنا (ملك الروم) .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٤٤ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٥٩ .

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٦ .

والحقيقة أنه خلال مدة حكم ميخائيل الرابع مع زوي ، التي إستمرت سبع سنوات ، عقدت الإمبراطورية البيزنطية معاهدة مع الخلافة الفاطمية في مصر وأحرزت إنتصارات مؤقتة في جزيرة صقلية (١) .

ففي ٤٢٧هـ/١٠٣٦م عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٢) . وفي رجب ٤٢٧هـ / مايو ١٠٣٦م تحالف كل من إبن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا قواتهما وأمدهما نصر الدولة إبن مروان بجيش كبير ، وسار الجميع إلى السويداء وكان البيزنطيون قد أعادوا تجديد بنائها ، فحاصرها المسلمون "وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ، وغنموا ما فيها وسبوا خلقا كثيرا" ثم توجهوا إلى الرها وحاصروها "وقطعوا الميرة عنها" حتى غلت الأسعار بها غلاء شديدا ، عندئذ خرج "البطريق" الذي بالمدينة متخفيا إلى الإمبراطور وأخبره حقيقة الأمر فأنجده خمسة آلاف فارس عاد بهم . ولما علم إبن وثاب وقائد قوات نصر الدولة بذلك كمنا لهم فلما إقتربوا منهم أخذوهم على غرة فقتل عدد كبير من البيزنطيين وأسر مثلهم ، كما أسر البطريرك أيضا وحمل إلى باب الرها وخيروا أهلها إما أن يفتحوا لهم باب المدينة أو يقتلوا البطريرك والأسرى الذين معه "ففتحوا البلد للعجز عن حفظه" وتحصنت القوات البيزنطية الموجودة بالمدينة بقلعتها ، فدخل المسلمون المدينة ، وغنموا ما فيها "وإمتلأت أيديهم من الغنائم والسبى وأكثروا القتل ، وأرسل إبن وثاب إلى آمد مائة وستين راحلة عليها رؤوس القتلى" عندئذ سار حسان بن الجراح الطائي بجيش يقدر بخمسين ألف فارس "من العرب والروم نجدة لمن بالرها" فسمع إبن وثاب بذلك فسار مسرعا لملاقاته قبل وصوله ، هنا خرج البيزنطيون الموجودين بالرها إلى حران فقاتلهم أهلها ، وفي نفس الوقت عاد إبن وثاب

---

(1) The New Encyclopaedia Britannica, V. VI, (1768), P.P. 857-858.

(٢) عندما توفى الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن أبي علي المنصور الحاكم في منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ/ يونيه ١٠٣٦م ، متأثرا بداء الإستسقاء الذي ظل يلازمه مدة عشرين سنة منذ صباه ، تولى بعده إبنه أبو تميم معد ولقب بالمستنصر بالله ، وكان مولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة ، وفي أيامه كانت قصة البساسيري وخطب له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة . وكان الحاكم في دولته بدر بن عبد الله الجمالي الملقب بالأفضل أمير الجيوش . (إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٤٧-٤٤٨ ؛ أما إبن العبري فيذكر أن الظاهر خليفة مصر توفى في ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م .
(Bar Hebraeus: Op.cit, V. I, P. 196.

مسرعا بمجرد سماعه ذلك الخبر فإنقض على البيزنطيين وقتل منهم عددا كبيرا وعاد المنهزمون إلى الرها (١) .

أما في ٤٢٩هـ (٢) / ١٠٣٨م فقد عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، تم فيها الإتفاق على أن يطلق الإمبراطور البيزنطي سراح خمسة آلاف أسيرا مسلما ، على أن يسمح للإمبراطور بأن يجدد بنيان كنيسة القيامة ، وبالفعل أطلق الإمبراطور سبيل الأسرى ووجه أحد خبراء العمارة إلى بيت المقدس للقيام بتلك المهمة بعد أن أمده بالأموال الوفيرة ، وبالفعل أتم مهمته على الوجه الأكمل ورممها كما كانت من قبل"(٣) .

أما عن صقلية فقد تم الإستيلاء على مسينا ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م وعلى سيراكوزا ٤٣٢هـ / ١٠٤١م ولكنها كانت إنتصارات مؤقتة (٤) .

نعود مرة أخرى إلى ما دون عن الجبهة الشرقية فنري ابن العبري يذكر أنه في سنة ٤٢٩هـ هاجم الأتراك الغز أرمينية أكثر من مرة "وقتلوا خلقا كثيرا من أكرادها وعربها" وإستولوا على غنيمة كبيرة . ثم زحفوا على أورميه بأذربيجان فإنحدر أكراد الجبل وإشتبكوا معهم فإنتصر الغز وقتلوا عددا كبيرا منهم أو "وأجهزوا على عدد وافر منهم" (٥) فلما وجد الأمير صالح بن وثاب النميري حاكم حران وأرمينية أنه عاجز عن مواجهة البيزنطيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٤٨ – ٤٤٩ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٠ ؛ د. محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفكر العربي (١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م) ص ٢٤٥ ؛ هنا يذكر المقريزي في إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ أن ذلك كان في ٤٢٧هـ وأن المعاهدة كانت بين الخليفة الظاهر وميخائيل الرابع . أما Bar Hebraeus: Op.cit, V.I, P. 196 أو ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٩ فيختلف في السنة فقط حيث يذكر أنها كانت ٤٢٧هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٦٠ ؛ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ . أما ابن العربي : تاريخ الزمان ، ص ٨٨ فيذكر أن عدد الأسرى كان خمسين ألف وأنهم كانوا مسيحيين ومعتقلين في مصر . والراجح أن ذلك الخطأ راجع للترجمة ، لأن المعاهدة بذلك الشكل تكون لمصلحة البيزنطيين دون المسلمين .

(4) The New Encyclopaedia Britannica, V. VI (1768), P. 858.

(٥) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٨٩ ؛ Bar Hebraeus: Op.cit, V.I, P. 198.

والأتراك معا ، عقد الصلح مع البيزنطيين وتخلى لهم عن الرها فإستولوا عليها وزاد عددهم فيها [1] . عندئذ عمر البيزنطيون الرها "العمارة الحسنة وحصنوها" فخاف المسلمون على حران منهم [2] .

وإذا كان إبن العبري قد ذكر أنه في سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م زحف البيزنطيون إلى بلاد الشام فتصدى لهم الأمير أنوشتكين بجوار حماه وتغلب عليهم وأسر إبن عم الإمبراطور "وقتل خصيا كبيرا" [3] . فالراجح أنه أخطأ في ذكر السنة حيث نرجح أنها ٤٣٢هـ إستنادا لما دونه إبن الأثير ضمن أحداث تلك السنة الأخيرة ، من أنه كانت هناك موقعة بين القوات المصرية والقوات البيزنطية وأن النصر فيها كان للمسلمين "كانت الوقعة بين عسكر المصريين سيره الدزبري ، وبين الروم ، فظفر المسلمون" [4] .

فلقد رأينا كيف هادن الفاطميون البيزنطيين في عهد المستنصر بالله وميخائيل الرابع سنة ٤٢٩هـ ، لكن لم تمر سوى ثلاث سنوات تقريبا أي في ٤٣٢هـ ، إلا وتمت مراسلات بين الإمبراطور البيزنطي وإبن صالح بن مرداس ، فقد راسل ميخائيل إبن صالح "يستميله" ، وراسله صالح ليتقوى به على الدزبري ، خوف أن يأخذ منه الرقة ، لكن عندما وصلت تلك الأخبار إلى الدزبري ، هدد إبن صالح ، فإعتذر الأخير . ثم إن جمعا من بني جعفر بن كلاب دخلوا ولاية أفامية فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى ، فخرجت عليهم بعض القوات البيزنطية ، قاتلتهم وهزمتهم وشتتت شملهم . ثم أرسل حاكم حلب إلى الدزبري يخبره أن البيزنطيين يتجهزون لمهاجمة البلاد " أن القوم على التجهز لقصد البلاد" ، عندئذ جهز الدزبري جيشا وجعل حاكم حلب على مقدمته فتقابلوا مع الجيش البيزنطي بين مدينة حماه وأفامية " وإشتد القتال بينهم ، ثم إن الله نصر المسلمين ، وأذل الكافرين" . وهكذا

---

(١) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٦٠ ، إبن العبري : المصدر السابق ، ص ٨٩ ، Bar Hebracus: Op.cit, V.1, P. 198; هنا ينكر مترجم كتاب إبن العبري أن الأمير إبن وثاب كان صاحب سورية وأرمينية .

(٢) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٦٠ .

(٣) إبن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٠ ، Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P. 199 هنا ينكر مترجم إبن العبري أن الذي قتل هو حاجبا كبيرا لاخصيا (eunuch) كما ورد في الأصل .

(٤) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩١ .

دارت الدوائر على البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير ، وأسر ابن عم الإمبراطور فافتدوه بمبلغ ضخم من المال ، وبإطلاق سراح عدد كبير من أسرى المسلمين ، فتوقف خطر البيزنطيين بعد ذلك " إنكف الروم عن الأذى بعدها" (١) .

والحقيقة أن زوي بزواجها من ميخائيل الرابع ، أخطأت تقدير الأمور مرة أخرى ، فما أن تزوجها ميخائيل حتى أهمل الإهتمام بها كلية ، وحتى حريتها الشخصية وتحركاتها كانت مقيدة بواسطة أخيه حنا الذي كان يراقبها بدقة كي يمنع تكرار المصير الذي أصاب رومانوس أرجيروس (٢) .

الواقع أن المستفيد الحقيقي من وراء تلك الزيجة كان حنا شقيق ميخائيل الرابع ، فقد خطط بدهاء لإستمرار الحكم في أسرتهم ، فقد أخذ في إعتباره الوفاة المرتقبة لأخيه فحصل على موافقة ميخائيل الرابع ، وأقنع الإمبراطورة زوي بتبني إبن أخته المسمى ميخائيل أيضا ، وهو الذي أعطى لقب قيصر (٣) .

وسرعان ما تم لحنا تنفيذ ما خطط ، فعند عودة ميخائيل الرابع من إحدى حروبه مع البلغار ، إشتد عليه المرض ، فإنسحب إلى أحد الأديرة – بعد أن تبنى ميخائيل إبن أخته – إلا أنه توفى في نفس اليوم ١٠ ديسمبر ١٠٤١م (٤) / ١٤ ربيع الثاني ٤٣٣هـ (٥) . وبمجرد وفاة ميخائيل الرابع خولت سلطات الحكم بالوراثة إلى إبن أخته ، وتوج بإسم ميخائيل الخامس Michael V (٦) .

---

(١) - إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩١ – ٤٩٢ .

(2) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323.

(3) Ibid, P. 326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.

(4) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; The New Encyclopaedia Britannica, V. VI, P.P. 857-858.

(٥) - إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ .

(6) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V: P. 198; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

هنا أخطأ إبن الأثير ، جـ ٩ ، ص ٥٠٢ في القول بأن ميخائيل الخامس كان إبن شقيق ميخائيل الرابع وليس إبن أخته .

والحقيقة أن حكم ميخائيل الخامس أو الجلفاط (١) The Calker, Calaphates ، أدى بعهد الأسرة البافلاجونية إلى نهاية غير متوقعة (٢) ، وبمعنى آخر "أدت مطامع البلافلاجونيين الخسيسة وكراهيتهم إلى تدميرهم" (٣) فقد رد ميخائيل بجحود على ما قدمه له خاله حنا وذلك بأن قبض عليه ونفاه ، دون أن يرتفع بنانا واحدا لتأييد ذلك الخصى الذي كان مكروها من الجميع (٤) ثم إزداد إندفاع ميخائيل الجلفاط أكثر بعد إتمامه لتلك الخطوة السابقة وذلك بإتجاهه إلى معاقبة الإمبراطورة زوي أيضا • وعلى حد تعبير (بسللوس) وجد أنها مصدر إزعاج شديد له ، وكان مستمرا في مراقبتها مراقبة صارمة ، كما كان الحال في عهد ميخائيل الرابع ، ثم أتبع ذلك بمحاولة رادعة لإبعادها عن حقل السياسة بعد إتهامها بمحاولة سم الإمبراطور ، وبالفعل ففي يوم عيد الفصح ١٠٤٢م نفيت زوي إلى جزيرة برنسبو Principo في بحر مرمرة ولم تصحبها سوى وصيفة واحدة (٥) •

ولا عبرة هنا بما جاء في بعض المصادر العربية عن حقيقة موقف ميخائيل الخامس من زوجة خاله • فقد ذكر القلقشندي أنه "أحسن السيرة وطلب من زوجة خاله أن تخلع نفسها عن الملك فأبت فنفاها إلى بعض الجزر وإستولى على المملكة سنة ٤٣٣هـ" (٦) •

---

(١) Previte Orton: Op.cit, P. 274; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.
والجلفاط هو الذي يسد شقوق السفينة •

(2) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

(3) Previte Orton: Op.cit, P. 274.

(4) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

(5) Husscy: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 198. Psellus عن
بالنسبة لعيد الفصح ، يقال إن المسيح عليه السلام تساق بين تلاميذه إلى السماء في هذا اليوم ، ووعدهم بإرسال روح القدس • ويأتي هذا العيد يوم إفطارهم بعد صيام أربعين يوما • (الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص ٢٨٠ – ٢٨١) • وعند اليهود يوافق ذكرى خروج بني إسرائيل مصر هربا من فرعون عابرين البحر وهو ما تعنيه كلمة فصح 'عبور' (د• حسين سعيد : الموسوعة الثقافية ، دار المعرفة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ص ٦٨٨) •

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ •

وربما كان ابن الأثير أقرب إلى الحقيقة عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أحضر زوجة خاله " وطلب منها أن تترهب وتنزع نفسها عن الملك فأبت ، فضربها وسيرها إلى جزيرة في البحر" (١) .

لكن ميخائيل الخامس لم ينعم بإنتصاراته سوى فترة وجيزة (٢) فسرعان ما قامت ثورة عارمة ضمت المخلصين للأسرة المقدونية وحكم على ميخائيل الجلفاط "الذي تجرأ برفع يده ضد من ولدت في الأرجوان بالعزل" ثم سملت عيناه في أبريل ١٠٤٢م (٣) شعبان ٤٣٣هـ ، بل قيل إنه سملت عينا خاله أيضا (٤) .

هنا يعطينا ابن الأثير صورة مفصلة تمثل وجهة النظر العربية عن أسباب الثورة التي أطاحت بأبناء الأسرة البقلاجونية المغتصبة للحكم ، وكيف أعيد العرش لورثة الأسرة المقدونية ، فيذكر أنه بعد أن نفى ميخائيل الجلفاط الإمبراطورة زوي زوجة ميخائيل الرابع إلى جزيرة في البحر" عزم على القبض على البطرك والإستراحة من تحكمه عليه ، فإنه كان لا يقدر على مخالفته" (٥) . فطلب منه أن يعمل له طعاما في دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده ، وبالفعل خرج البطريرك إلى الدير لينفذ ما طلبه الإمبراطور ، عندئذ أرسل الإمبراطور "جماعة من الروس والبلغار" ، بعد أن إتفق معهم على قتل البطريرك سرا ، فقصدوه ليلا وحاصروه في الدير ، فإستمالهم إليه بأن دفع لهم أموالا طائلة ، وخرج متخفيا "وقصد البيعة التي يسكنها وضرب الناقوس" فإجتمع البيزنطيون حوله ، فدعاهم إلى عزل الإمبراطور ، فأجابوه إلى مطلبه وحاصروا ميخائيل الخامس أو الجلفاط ، فأرسل الأخير إلى (زوجته) (٦) وطلب منها أن تبرأه فرفضت "وأخرجته إلى بيعة يترهب فيها" (٧) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ .

(2) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Cahpter V, P. 198.

(3) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

(4) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٦) أخطأ ابن الأثير في كتابه الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ ، عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أرسل إلى زوجته وأحضرها من الجزيرة التي نفاها إليها" لأن التي نفيت هي زوجة خاله لا زوجته هو ، وربما كان سبب الخطأ هو أن الإسمين متشابهين تماما أي ميخائيل الرابع وميخائيل الخامس .

(٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ .

ثم يستكمل إبن الأثير روايته بقوله : إن البطريرك والبيزنطيين "نزعوا زوجته [1] من الملك" ، وملكوا أختا لها صغيرة وإسمها (تدوره) [2] ، وجعلوا معها خدم أبيها يدبرون الملك ، وكحلوا ميخائيل ، ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصب له وبين من يتعصب لتذورة والبطرك ، فظفر أصحاب تذورة بهم ونهبوا أموالهم" [3] .

نعود مرة أخرى إلى وجهة النظر الغربية ونقرأ ما دون في المصادر والمراجع البيزنطية ، فنستشف منها أن الإمبراطورة زوي برزت في نفس اليوم الذي تم فيه سمل عيني الإمبراطور ميخائيل الخامس وخاله للجماهير وهى في ثياب الراهبات ، لا في ثيابها الإمبراطورية [4] ثم أسرعت نفس الجماهير إلى دير Petrion وإنتزعت منه أخت زوي الصغرى – ثيودورا – التي كانت راهبة "وجروها رغم إرادتها إلى كنيسة سانت صوفي كي ينادوا بها إمبراطورة بالإشتراك مع زوي" [5] . وقد قيل إن ثيودورا كانت قد حجبت وفقا لطلب زوي [6] .

هنا نتوقف قليلا لنتعرف عن قرب على ثيودورا . فنجد أنها الإبنة الصغرى للإمبراطور قنسطنطين الثامن ، وكانت طويلة مثله ، جافة ، سريعة في لهجتها وكلامها ، ولم تكن على قدر من الجمال ، لكنها كانت تقية وفي نفس الوقت كانت بخيلة ، هذا إلى جانب أنها كانت على عدم وفاق بإستمرار مع أختها زوي [7] حتى قيل إن زوي كانت شديدة الغيرة منها ، وأنها كانت تفضل معاملة ميخائيل السيئة عن مشاركة أختها ثيودورا في الحكم[8] .

---

(1) المقصود زوي زوجة خاله لا زوجته هو .
(2) المقصود ثيودورا .
(3) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ – ٥٠٠ .
(4) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.
(5) Ibit, P. 199.
(6) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
(7) Hussey: Op.cit, Cam. Med. hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P.P. 193-194.
(8) Ibid, P. 199.

وبإعتبار أن الأختين كانتا الممثلتين الوحيدتين الشرعيتين للأسرة المقدونية ، لذلك إنتقل إليهما الحكم معا [1] . ولو أن زوي أصرت على أن تكون لها الأسبقية على أختها [2].

وهكذا "حكمت الأختين المتباينتين تماما الإمبراطورية البيزنطية" [3] . لكن رغم أنهما كانتا الممثلتين الشرعيتين للأسرة المقدونية إلا أنه كان يعوقهما عن مواصلة السهر على شئون الإمبراطورية شيئين ، أولهما : أنهما كانتا في ذلك الوقت إمرأتين طاعنتين في السن ، وكان من الصعب عليهما توجيه الإمبراطورية إلى الطريق المستقيم ، لذلك فخلال فترة حكمهما القصيرة إتحدت العناصر المدنية والعسكرية على العمل معا بإنسجام ، وكان الجميع يغتنمون أية فرصة للسيطرة على شئون الحكم [4] وثانيهما : أن العداوة بين الأختين كانت متأصلة حتى أصبح من الضروري العثور على رجل قوي ليمسك بزمام الحكم[5] .

هنا يعلق (بسللوس Psellus) على حكم زوي وثيودورا القصير بأنه "يمدنا بمثال فريد للحكم المشترك والمشاركة في السلطة العليا" [6] .

كانت حاجة الإمبراطورية ملحة إلى وجود رجل قوي على رأس الحكومة ، لذا كان لابد من زواج إحدى الأختين الكهلتين "وكانت ثيودورا لا ترغب في الزواج" [7] ، أما زوي فقد شرعت في البحث من جديد ، وبطريقة مستمرة ، عن زوج ثالث لها ، رغم أنها كانت قد بلغت الرابعة والستين من عمرها [8] . وبالفعل وجدت ضالتها في "الفارس الوسيم"

---

(1) Ensslin (W): The Government and administration of the Byzantine Empire, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 11, Chapter XX, P. 5; Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Previte Orton: Op.cit, P. 274.
(2) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V. P. 199.
(3) Previte Orton: Op.cit, P. 274.
(4) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.
(5) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
(6) Ensslin (W): Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 11, Chapter XX, P. 5. عن Psellus.
(7) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
(8) Ibid, P. 326.

قنسطنطين مونوماخوس Constantine Monomachus (١) ، الذي كان أحد أعضاء حزب السناتو البارزين ، فإتخذته زوجا ثالثا لها في ١١ يونيه ١٠٤٢م/٤٣٣هـ (٢) .

ولقد كان إبن الأثير أقرب إلى الحقيقة حين أوضح في أحداث ٤٣٣هـ "أن الروم إفتقروا إلى ملك يدبرهم ، فكتبوا أسماء جماعة يصلحون للملك في رقاع ، ووضعوها في بنادق طين وأمروا من يخرج منها بندقة وهو لا يعرف بإسم من فيها ، فخرج إسم قنسطنطين ، فملكوه وتزوجته الملكة الكبيرة ، وإستنزلت أختها الصغيرة تذورة عن الملك بمال بذلته لها" (٣) .

وثمة فقرة عن هذه النقطة أخذت عن الترجمة العربية (للأب إسحق أرملة) مترجم كتاب تاريخ إبن العبري إلى العربية والذي سماه (تاريخ الزمان) ، وهي مليئة بالأخطاء التاريخية واللغوية ، لذا نود أن نبرزها ونصححها ، وهي أنه أورد في أحداث ٤٣٣هـ/١٠٤٢م ما نصه : "توفى ميخائيل ملك الروم دون عقب ، وتولى شئون المملكة إبنتاه زواي وثئودورا ثلاثة أشهر . ثم عقد الأقطاب المشورة وإنتقوا منهم ثلاثة أشخاص كفوئين ، وكتبوا أسماءهم في أوراق وضعوها في صندوقة ختموها بالشمع وأحضروا صبيا مد يده وإستخرج أحدها وبها إسم موتوماخوس فزفوا إليه ثئودورا المذكورة ونادوا به ملكا بإسم قسطنطين . وأسنت ثئودورا لأختها زواي تسعة قناطير ذهبا بدلا من الملك" (٤) .

---

(1) Larousse Encyclopaedia..., Op.cit, P. 297, The Encyclopaedia Americana, V. 7, P. 650.

(2) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

(٣) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥٠٠ .

(٤) إبن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩١ .

هنا يورد إبن العبري زواي بإسم Zoai أو Zai ، ثئودورا بإسم Theodora . وبمراجعة ترجمة النص من الأصل لإبن العبري نجد فيه عدة أخطاء منها دون عقب = دون أبناء ذكور ، وإنتقوا منهم ثلاثة = وإنتقوا من بين أبنائهم ، كفوئين = يصلحون للحكم ، وأسنت ثئودورا لأختها = وأعطت ثيودورا أختها .

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 200.

عند تناول النص السابق بالتحليل والنقد وبمقارنته في نفس الوقت بتاريخ إبن العبري الأصلي نلاحظ ما يلي :

أولا : يتفق إبن العبري والمترجم على أنه في سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٢م سملت عيني ميخائيل الخامس وأبعد إلى أحد الأديرة كما مر بنا ، ولا نعلم إن كان قد توفي في تلك السنة أم لا .

ثانيا : كيف يكون ميخائيل قد توفى دون عقب ، ثم تتولى إبنتاه ، زواي وثئودورا – كما سماهما المترجم – شئون المملكة ؟ وهنا نجد الرد ببساطة على تساؤلنا في أن المترجم أخطأ في ترجمة Without Sons أي (دون أبناء ذكور) إلى (دون عقب) .

الواقع أن إبن العبري خلط هنا بين إبنتي قنسطنطين الثامن وبين إبنتي ميخائيل المزعومتين هنا . ثالثا : أن ثيودورا (ثئودورا) لم تتزوج وأن التي تزوجت من قنسطنطين مونوماخوس هي زوي إبنة قنسطنطين الثامن لا أختها ثيودورا ، وأنها إعتلت العرش إلى جانبه ، كما سنرى . وعليه يكون الجزء الأخير من الفقرة وهو ، أن "ثئودورا أسنت لأختها زواي تسعة قناطير ذهبا بدلا من الملك" لا محل لها من الصحة .

كان قنسطنطين مونوماخوس ينتمي إلى أسرة عريقة (١) إتصف بالشهامة ورحابة الصدر والسخاء في عطائه (٢) وكانت ثقافته عالية ، إلا أنه كان فاسقا خليعا (٣) وقد توج إمبراطورا في اليوم التالي لزواجه من زوي ١٢ يونيه ١٠٤٢م (٤) / شوال ٤٣٣هـ بإسم قنسطنطين التاسع مونوماخوس ، وبذلك إنتهت تلك الفترة الفاصلة من الحكم النسائي (٥) التي إستمرت حوالي ثلاثة أشهر .

---

(1) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.
هنا يذكر نفس المرجع أنه كان قد حبس في مدينة ملطية كأحد المشكوك فيهم سياسيا في عهد ميخائيل الرابع.

(٢) إبن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩١ Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 200;

(3) Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

(4) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, 199.

(5) Ensslin (W.): Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV; Part 11, Chapter XX, P. 5.

هنا إختلفت الآراء في وضع قنسطنطين التاسع عندئذ ، فالبعض ذكر أنه بتوليه العرش الإمبراطوري "تخلت له السيدتان عن السيادة بصورة آلية" (١) في حين أوضح رأي آخر أنه أصبح حاكما مساعدا لزوي وثيودورا (٢) وأنه لم يحاول أن يضع أي نوع من القيود على شريكتيه في الحكم (٣) "فتمتعت الأختان مع الإمبراطور العاشق المحب للملذات ، بتبديد المدخرات العامة" (٤) .

أما عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في فترة حكم قنسطنطين التاسع وزوي ، فأول ما تسعفنا به المصادر التي بين أيدينا في ٤٣٥هـ (٥) / ١٠٤٤م (٦) هو طرد الغرباء المسلمين والنصارى الموجودين في العاصمة البيزنطية ، والذين بلغ عددهم أكثر من مائة ألف شخص ، وكان سبب ذلك أنه سرت شائعة في العاصمة بأن قنسطنطين قتل زوي وثيودورا إبنتي قنسطنطين الثامن ، عندئذ ثار الأهالي وأعملوا النهب والسلب في البلد ، فبرز لهم قنسطنطين رسألهم عن السبب فأجابوه أنه قتل الملكتين وأفسد الملك فرد عليهم بنفي تهمة القتل عنه وأخرج لهم الملكتين فلما رآهما الناس سكنوا ، وعندما تقصى حقيقة الأمر علم أن الغرباء هم سبب ذلك الشغب ، وأشير عليه بإبعادهم ، فنودى "أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة ، فمن أقام بعد ثلاثة أيام كحل" – أي سلمت عينيه – لذلك رحل عن العاصمة البيزنطية أكثر من مائة ألف مسلم ونصراني "ولم يبق بها أكثر من إثنتي عشر نفسا ، ضمنهم الروم فتركهم" (٧) .

---

(١) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ .

(2) The New Encyclopaedia Britannica, V. III, P. 102.

(3) Ostrogorsky: Op.cit, P. 327.

(4) Ibid: P. 327.

(٥) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥١٥ ؛ إبن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٥١ .

(٦) إبن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ ، Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 203

(٧) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥١٥ ؛ Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 203 ؛ إبن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ . أما إبن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٥١ فيذكر أن "ملك الروم" أي الإمبراطور نفي من القسطنطينية كل غريب له فيها دون العشرين سنة .

وقد شهدت سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٦م علاقات ودية بين البيزنطيين والفاطميين في مصر والدليل على ذلك الهدية القيمة التي أرسلها الإمبراطور قنسطنطين التاسع مونوماخوس في ثامن ذي الحجة / يونيه من تلك السنة ، إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، والتي إشتملت على "ثلاثين قنطارا من الذهب ، وكان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهما عليه ثوب ديباج رومي منقوش تقيل ، وخمسين بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بمينـاء ، وفيها من الديباج والسندس والأبريسم والعمائم المعلمة ما لا يقدر على مثله" (١) . فما كان من المستنصر بالله إلا أن أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي بهدية مثلها "من الجوهر والمسك والعود والطراز ، عمل تنيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعثه" (٢) .

وقد تجددت العلاقات الودية بين المسلمين والبيزنطيين في ٤٣٩هـ / ١٠٤٧-١٠٤٨م وذلك بتجديد الهدنة "بين صاحب مصر وبين الروم ، وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة" (٣) . لكن في نفس السنة السابقة أيضا ٤٣٩هـ سير المعز باديس صاحب أفريقية أسطولا إلى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد (٤) .

أما من ناحية الشرق فكان الوضع على عكس ذلك بعد ظهور الأتراك السلاجقة ، الذين وفدوا على العراق من منطقة بحر آرال وكان تحمسهم للإسلام وللمذهب السني على وجه الخصوص أبرز ما يميزهم ، ووجدوا في بلاد العراق الخصبة وما حولها ما حملهم على التفكير الجدي في الإستقرار فقام زعيمهم طغرلبك ١٠٣٨م/ ٤٣١هـ بإحتلال جرجان وطبرستان ثم خوارزم ، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوي ، وإحتل نيسابور عاصمة خراسان ، وتدرجت القوة السلجوقية في معارج البأس حتى دخل

---

(١) المقريزي : إتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ . هنا يذكر المقريزي أن القنطار عندهم سبعة آلاف دينار ومائتان دينار . أما جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ (عن الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستطرف ، فيذكر أن قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية) .

(٢) المقريزي : إتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ .

(٣) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ص ٥٤١ .

(٤) إبن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤٢ .

السلاجقة بغداد في ١٠٥٥م / ٤٤٦-٤٤٧هـ . وكان من الطبيعي أن تحتك القوة السلجوقية الناشئة بالإمبراطورية البيزنطية ، فأخذ السلاجقة في الإغارة على أطرافها في البلاد الأرمينية (١) .

ففي سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨-١٠٤٩م عبر جمع غفير من الأتراك الغزمن بلاد ماوراء النهر إلى بلاد إبراهيم ينال ، فرأى أن بلاده تضيق بهم وبمطالبهم ، فأخبرهم بذلك وأشار عليهم بأن "تمضوا إلى غزو الروم ، وتجاهدوا في سبيل الله وتغنموا ، وأنا سائر على أثركم ومساعد لكم على أمركم" عندئذ تقدموا إلى الحدود الشرقية للدولة البيزنطية ، وسار هو في إثرهم ، فوصلوا ملازكرد وآرزن الروم وقاليقلا ، وبلغوا طرابزون ، فقابلهم جيش من البيزنطيين والأبخاز ، يقدر بحوالي "خمسين ألفا" فحدثت بينهم عدة معارك ، تبادلوا فيها النصر والهزيمة "وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين" فقتلوا عددا كبيرا من البيزنطيين ، وأسروا "جماعة كثيرة من بطارقتهم وممن أسر قاريط (قاربط) ملك الأبخاز" فحاول أن يفدي نفسه بدفع ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف ، فرفض إبراهيم ينال "ولم يزل يجوس في تلك البلاد وينهبها ، إلى أن بقي بينه وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما" وإستولى المسلمون على تلك النواحي فنهبوها وغنموا ما فيها ، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس ، وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يحصى ، وقيل إن الغنائم حملت على عشرة آلاف عجلة وأن في جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع (٢) .

لكن بالرغم من كل ذلك فإن الإمبراطور قسطنطين التاسع فضل أن يحتفظ بعلاقاته الودية الهادئة مع المسلمين ، وخير دليل على ذلك أنه أرسل إلى السلطان طغرلبك هدية عظيمة في ٤٤١هـ / ١٠٥٠م وطلب منه عقد معاهدة سلام بينهما ، فوافق طغرلبك على ذلك ، وكان الشرط الثاني هو تعمير مسجد القسطنطينية ، وإقامة الصلاة والخطبة فيه

---

(١) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥٤٦ أحداث ٤٤٠هـ .
وأبخاز بالفتح ثم السكون والخاء معجمة وألف وزاي إسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب ، وهي جبال صعبة المسلك وعرة لا مجال للخيل فيها ، تجاور بلاد اللان . (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت حرف الألف والباء وما يثلثهما) .

لطغرلبك [1] . هذا بالإضافة إلى إحتفاظ الإمبراطور بعلاقات ودية أيضا مع الخلافة العباسية والتي تمثلت في تلك الرسالة التي أرسلها في ٤٤٣هـ / ١٠٥٢م إلى الخليفة القائم والمكتوبة بالرومية إلى جانب ترجمة لها بالعربية تخللت سطورها ، وقد رقمت بحروف ذهبية على قطعة أرجوانية [2] .

والواقع أنه بتقدم زوي في السن أصبحت أكثر تسامحا [3] وظلت كذلك حتى توفيت في ٢٦ مايو ١٠٥٠م أول المحرم ٤٤٢هـ [4] "وودعت بذلك حياتها الخيالية الغريبة" [5] .

وفي ١١ يناير ١٠٥٥م / ٩ شوال ٤٤٦هـ توفى قنسطنطين التاسع [6] ، ويبدو أنه كان قد أعطى رأيه فيمن يخلفه على العرش ، لكن ذلك تم دون علم ثيودورا ، الممثلة الوحيدة الباقية للبيت المقدوني ، لذا فعندما سمعت بذلك عادت إلى القصر وسيطرت على الحرس الإمبراطوري ، وفي الحال "تقلدت الأطلال الباقية للحكم" [7] وعادت إلى كامل سلطانها [8] وهكذا تقلدت ثيودورا السلطة الإمبراطورية بمفردها حتى توفيت في آخر أغسطس ١٠٥٦م [9] أو بداية سبتمبر ١٠٥٦م [10] / السبت ١٦ جمادى الآخرة ٤٤٨هـ .

---

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٧-٩٨ ، ولقد وردت السنوات في الأصل على النحو التالي ١٠٥١/٤٤٣م (Bar Hebraeus, Op.cit, V. 1, P.P. 206-207).

(3) Ostrogorsky: Op.cit, P. 327.

(4) Ibid: P. 616: Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

(5) Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

(6) Ostrogorsky: Op.cit, P. 337; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Chapter V, P. 204.

هنا أخطأ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٦٠٣ - ٦٠٤ ؛

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 207.

ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٨ ، في القول بأن قنسطنطين التاسع كان متزوجا من ثيودورا ابنة قنسطنطين الثامن لأن قنسطنطين التاسع كان متزوجا من زوي لا ثيودورا . والراجح أن الثاني أخذ عن الأول هذا الخطأ .

(7) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 204.

(٨) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ .

(9) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 205.

حيث ذكرت هسي نقلا عن Scylitzes-Cedrenus أن وفاتها كانت في ٣١ أغسطس ، أما هي فتقول أنها كانت في ٢١ أغسطس .

(10) Ostrogorsky: Op.cit, P. 338.

والواقع أن ثيودورا قامت بمحاولة جادة يحوطها التصميم التام لإدارة دفة الحكم ، حقيقة أنها لم تتخذ زوجا لكنها إختارت وزيرا لها هو (Leo Paraspondylus) ، وكان "واقعيا عنيدا ذو عمل جاد متواصل ، فإفتتح سياسة إقتصادية في الداخل وعمل على إقرار السلام في الخارج" (١) .

هنا يعقب (استروجورسكي) على نهاية الأسرة المقدونية بقوله " إنه بوفاة ثيودورا إنتهت الأسرة المقدونية الشهيرة ، فكانت نهاية غريبة حقا لتلك الأسرة البيزنطية التي جاهدت بشدة كي تؤسس نفسها ، وفي النهاية تماسكت بعناد لتواصل الحياة ، وذلك لمدة الثلاثين سنة الأخيرة ، وبذلك مرت كل أعمالها العظيمة ذات الشهرة البعيدة المدى دون أن يتغنى بها" (٢) .

أما عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في الفترة الأخيرة من حكم قنسطنطين التاسع وفترة حكم ثيودورا حتى نهاية عهد الأسرة المقدونية ، فأهم ما يلاحظ فيها بالنسبة للجبهة الشرقية ، أن طغرلبك أنهى حالة الهدنة بين السلاجقة وبين البيزنطيين وتقدم في نهاية ٤٤٦هـ / ١٠٥٥م إلى أرمينية ثم إلى ملازكرد التابعة للبيزنطيين فحاصرها وضيق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد وخربها ، عندئذ دخل نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر في طاعته وأرسل إليه الهدايا الكثيرة والقوات كي تحارب البيزنطيين تحت لوائه (٣) . عندئذ أوغل طغرلبك في أراضي البيزنطيين وأحرز عليهم إنتصارات باهرة ونهب بلادهم وقتل وسبى العديد منهم (٤) "وبلغ في غزوته هذه إلى أرزن الروم" ثم عاد إلى آذربيجان عندما دخل عليه فصل الشتاء" (٥) .

---

(1) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 204.
(2) Ostrogorsky: Op.cit, P. 338.
(٣) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥٩٩ .
(٤) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة ؛ أبو الفدا : المختصر ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ ؛ إبن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٦٥ .
(٥) إبن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥٩٩ .

أما عن العلاقة مع الفاطميين ، فثمة رأي يذكر أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي إستغل فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية وعمل على إنتعاش الحالة الإقتصادية في دولته فأرسل إلى الإمبراطور قنسطنطين التاسع ، على أثر المجاعة التي حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٥م يطلب منه أن يمده بأربعمائة ألف أردب من القمح ، فأظهر الإمبراطور إستعداده لإجابة هذا الطلب ، لكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الإمبراطورة ثيودورا ، فإشترطت لمعونة مصر أن يمدها المستنصر بالجنود إذا ما إعتدى على بلادها أي معتد ، غير أن المستنصر رفض الموافقة على هذا الشرط ، فأجابته ثيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر (١) .

وقد زاد تعقيد الوضع أكثر بين البيزنطيين والفاطميين عندما أراد الخليفة المستنصر أن يرد إعتبار الفاطميين بإرسال جيش فاطمي لمحاربة البيزنطيين بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم ، ونودى في بلاد الشام بالغزو والجهاد (٢) . وقد تنقل الجيش الفاطمي في أجزاء مختلفة من بلاد الشام وإستقر به المطاف أخيرا في أنطاكية ، عندئذ أرسلت الإمبراطورة ثيودورا أسطولا إلى أنطاكية مكونا من ثمانين قطعة "وخرج دوقس إنطاكية وبطركها في جماعة فظفروا بشيئين للمسلمين معهما الغنائم" (٣) . وبذلك وقعت الهزيمة بالمسلمين وأسر منهم عددا كبيرا (٤) وقتل من الفريقين عددا كبيرا وعاد الأسطول البيزنطي إلى اللاذقية (٥) .

عندئذ أرسل الخليفة المستنصر سفارة من قبله ، إلى الإمبراطورة ثيودورا ، على رأسها أبي عبد الله القضاعي (٦) . ثم إتضحت نوايا البيزنطيين أكثر عندئذ تجاه الفاطميين ،

---

(1) Canard (M.): Byzantium and the Muslim World to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter XVII, P. 726;
جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

(٢) المقريزي : إتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣١ . والشوان مركب حربية بها مائة وأربعون مجدافا ، وكانت تعد أكبر سفن الأسطول (حاشية عن دوزي ، قوانين الدواوين) .

(٤) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

(٥) المقريزي : إتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

(٦) علية الجنزوري : المرأة في الحضارة البيزنطية ، ص ١٢٥ حاشية ٦٥١ .

عندما سمحت الإمبراطورة ثيودورا بالخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي ، أثناء وجود أبي عبد الله القضاعي سفير الفاطميين بالقسطنطينية ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م (١) . ونحن نؤيد هنا الرأي الذي يقول : "إنه لا شرو فقد كان السلاجقة في ذلك الوقت أشد خطرا على البيزنطيين من الفاطميين الذين إضمحل سلطانهم في بلاد المغرب وأصبحوا يواجهون كثيرا من الصعاب في مصر" (٢) .

كان رد الخليفة المستنصر على تلك الإساءة التي لحقت بسفيره بل بخلافته كلها أن أخذ نفائس وكنوز كنيسة القيامة (٣) "فأحاط بما في قمامة وأخذه وأخرج البطرك منها إلى دار مفردة" (٤) إلى جانب إغلاقه للكنائس بمصر وزيادة الجزية على النصارى ، بل ومطالبته الرهبان بها عن أربع سنوات (٥) وقد أدت كل تلك الإجراءات إلى التوتر الشديد في العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين (٦) .

ضغط حزب البلاط على الإمبراطورة ثيودورا في ١٠٥٦م / ٤٤٨-٤٤٩هـ كي تختار من يتولى الحكم بعدها . فوقع إختيارها على البطريرك ميخائيل Michael ، المعروف بإسم العجوز أو (ستراتيوتيكوس Stratioticus) . فلما ماتت ثيودورا في بداية سبتمبر ١٠٥٦م / منتصف جمادى الآخرة ٤٤٨هـ ، تولى ميخائيل العرش بإسم ميخائيل السادس Michael VI ، ولم تتجاوز مدة حكمه سنة واحدة ، تألف أثناءها حزب لمقاومته برئاسة الجيش المرابط في آسيا الصغرى ، وهو الذي نادى بالقائد إسحاق كومنين Isaac Comnenus إمبراطورا (٧) .

---

(١) إبن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، حوادث ٤٤٧هـ ؛ المقريزي : إتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٢) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(٤) المقريزي : إتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٦) المقريزي : إتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧ .

(7) Ostrogorsky: Op.cit, P. 338; Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, P. 297.

وهكذا طويت فترة حكم الإمبراطورتين زوي وثيودورا التي مثلت الحكم النسائي الإمبراطوري المشترك لأول وآخر مرة في التاريخ البيزنطي إلى جانب فترة حكم زوي وأزواجها الثلاثة كما مر بنا .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

١- إبن الأثير الجزري : (ت ٦٣٠هـ / ١٢٢٢م)
أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الملقب بعز الدين : الكامل في التاريخ ، الجزء التاسع ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٢ - إبن أيبك الدواداري : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)
أبو بكر بن عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .

٣ - إبن تغري بردي : (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)
جمال الدين يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، جـ ٤ ، (د٠م ، د٠ت) ، جـ ٥ ، من سلسلة تراثنا ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب .

٤ - إبن العبري : (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)
أبو الفرج جمال الدين : تاريخ الزمان ، نقله إلى العربية الأب إسحق أرملة وصدر تباعا في مجلة الشرق (١٩٤٩-١٩٥٦) ، قدم له الأب الدكتور جان موريس فيه في المناسبة المئوية السابعة لوفاة المؤلف ١٢٨٦-١٩٨٦ ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ١٩٨٦ .

٥ - إبن القلانسي : (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م)
أبو يعلي حمزه : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٨٠ .

٦ – إبن كثير : (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)
أبو الفدا الحافظ : البداية والنهاية ، الجزء الثاني عشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٦ .

٧ – إبن ميسر : (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م)
أبو عبد الله تاج الدين محمد بن علي بن يوسف : أخبار مصر ، الجزء الثاني ، مصر ١٩١٩ .

٨ – أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)
عماد الدين إسماعيل : المختصر في أخبار البشر ، الجزء الثاني ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

٩ – السيوطي : (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)
الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .

١٠ – القلقشندي : (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
أبو العباس أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، الجزء الخامس ، بيروت ١٩٨٠ .

١١ – المقريزي : (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)
تقي الدين أحمد بن علي : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الدكتور حلمي محمد أحمد ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .

١٢ – ياقوت الحموي : (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)
شهاب الدين أبو عبد الله : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت .

ثانيا : المراجع العربية والمعربة :

١ – حسن حبشي :

الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٨ .

٢ – رنسيمان : ستفن :

الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة زكي علي، من سلسلة الألف كتاب ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١م .

٣ – علية عبد السميع الجنزوري :

المرأة في الحضارة البيزنطية ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ .

٤ – محمد جمال الدين سرور :

سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفكر العربي ، ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م .

ثالثا : المصادر والمراجع الأجنبية :

Bar Hebraeus:

The Chronography of Gregory Abul Faraj, The Son of AAron the Hebrew Physician, the First Part of His Political History of the world, Translated from Syriac by Ernest A. Wallis Budge, Volume 1, English translation, Oxford University Press, London, 1932.

Canard (M.):

Byzantium and Muslim world to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist., V. IV, The Byzantine Empire, Part 1, Byzantium and Its neighbours, Chapter XVII.

- Encyclopaedia Americana, V. 19.

- Ensslin (W.):

The Government and administration of the Byzantine Empire, Cam. Med. Hist, V. IV, The Byzantine Empire, Part 11, Government, Church and Civilization, Chapter XX.

- Hussey (J.M.):

The Later Macedonians, the Comneni and the Angeli 1025-1204, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V.

- Larouse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General Editor: Marcel Dunan Honorary, Foreward by Arnold Toynbee.

- Ostrogorsky (G.):

History of the Byzantine state, translated by Joan Hussey, Oxford, 1968.

- Previte Orton (C.W.):

The Shorter Cambridge Medieval History, V. 1, Cambridge University Press, 1977.

- The New Encyclopaedia Britannica, V. VI, 1768.